

تفسير البحر المحيط

@ 441 @ الزمخشري : يئسوا منه أن يبطلوه وأن يرجعوا محللين لهذه الخبائث بعدما حرمت عليكم . وقيل : يئسوا من دينكم أن يغلبوه لأنّ اﷺ وفى بوعده من إظهاره على الدين كله انتهى . وقرأ أبو جعفر : يئس من غير همز ، ورويت عن أبي عمرو . . .
{ فَلَا تَخْشَوْهُمْ هُمْ وَآخِشُونَ } قال ابن جبير : فلا تخشوهم أن يظهروا عليكم . وقال ابن السائب : فلا تخشوهم أن يظهروا على دينكم . وقيل : فلا تخشوا عاقبتهم . والظاهر أنه نهى عن خشيتهم إياهم ، وأنهم لا يخشون إلا اﷻ تعالى . . .
{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } يحتل اليوم المعاني التي قيلت في قوله : اليوم يئس . قال الجمهور : وإكماله هو إظهاره ، واستيعاب عظم فرائضه ، وتحليله وتحريمه . قالوا : وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآيات الربا ، وآية الكلالة ، وغير ذلك ، وإنما كمل معظم الدين ، وأمر الحج ، إنّ حجا وليس معهم مشرك . وخطب الزمخشري في هذا المعنى فقال : كفيتمكم أمر عدوكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد إذا كفوا من ينازعهم الملك ، ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم . أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه من تعليم الحلال والحرام ، والتوقيف على الشرائع ، وقوانين القياس ، وأصول الاجتهاد انتهى . وهذا القول الثاني هو : قول ابن عباس والسدي قالا : كمال فرائضه وحدوده ، ولم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم ، فعلى هذا يكون المعنى : أكملت لكم شرائع دينكم . وقال قتادة وابن جبير : كما له أن ينفي المشركين عن البيت ، فلم يحج مشرك . وقال الشعبي : كمال الدين هو عزه وظهوره ، وذل الشرك ودروسه ، لا تكامل الفرائض والسنن ، لأنها لم تنزل تنزل إلى أن قبض . وقيل : كما له إلا من من نسخه بعده كما نسخ به ما تقدّم . وقال القفال : الدين ما كان ناقصاً البتة ، بل كانت الشرائع تنزل في كل وقت كافية في ذلك الوقت ، إلا أنه تعالى كان عالماً في أول المبعث بأنّ ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ، وكان ينسخ بعد الثبوت ويزيد بعد العدم ، وأما في آخر زمان المبعث فأنزل شريعة كاملة ، وأحكم ثباتها إلى يوم القيامة . وروي أن هذه الآية لما نزلت يوم الحج الأكبر ، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم (بكى عمر بن الخطاب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم) : (ما يبكيك ؟) فقال : أبكاني أنا كنا في زيادة ديننا ، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم) : (صدقت) . . .
{ وَأَتِمَّمْتُ نِعْمَتِي } أي في ظهور الإسلام ، وكمال الدين ، وسعة الأحوال

، وغير ذلك مما انتظمته هذه الملة الحنيفية ، إلى دخول الجنة ، والخلود ، وحسَّـن
العبارة الزمخشري فقال : بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم
، وإن لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان انتهى . فكلامه مجموع أقوال المتقدمين . قال
ابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة : إتمام النعمة منع المشركين من الحج . وقال السدي : هو
الإظهار على العدو . وقال ابن زيد : بالهداية إلى الإسلام . وقال الزمخشري : وأتممت عليكم
نعمتي بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال : وأتممت عليكم نعمتي بذلك ، لأنه لا نعمة من
نعمة الإسلام . .

{ وَرَضِيتُ لَكُمُْ الْإِسْلَامَ دِينًا } يعني : اخترته لكم من بين الأديان ، وأذنتكم
بأنه هو الدين المرضي وحده (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (إن هذه أمتكم
أمة واحدة) قاله الزمخشري . وقال ابن عطية الرضا في : هذا الموضع يحتمل أن يكون بمعنى
الإرادة ، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار إياه ، لأنَّ الرضا من الصفات
المتردة بين صفات الذات وصفات الأفعال ، وإِـ تعالَى قد رضي الإسلام وأراده لنا ، وثم
أشياء يريد إِـ وقوعها ولا برضاها . والإسلام هنا هو الدين في قوله : { إِنَّ الدِّينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } انتهى وكلامه يدل على أنَّ الرضا إذا كان من صفات الذات فهو
صفة تغاير الإرادة . وقيل : المعنى أعلمتكم برضائي به